الكتب

الانجليز فى بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفى باشا

للأستاذ م . ف . ا

لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نقدم كتاب الدكتور حافظ عفيفى باشا الى الجمهور ، فقد تقدم به مؤلفه إليه مباشرة ، وله من اسمه ومعرفة الجمهور به ما يغنيه عن ذلك التقديم ، كما أننا لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نجامل الدكتور ، فان احترامنا للمؤلف إنما يبعثنا على ألا نحاول مجاملته بغير الحق

إن ذلك الكتاب الذى أخرجه الدكتور من تلك الكتب التى لا يملك القارئ أن يصفها وصفاً موضوعياً ، فان كل فصل منه ، بل كل فقرة منه ، تدعو الى التفكير وتتداعى لها المعانى فى ذهن القارئ تداعياً يجعله فى شبه معترك أحياناً ، وفى شبه حماسة أحياناً أخرى ، بحسب اختلافه مع المؤلف أو اتفاقه معه فى الرأى ؛ فالذى يقرأ ذلك الكتاب يحس ما يحسه المتحدث الى جليس فى اجتماع خاص : لا يخيل إليه أنه يتعلم ، ولا يخيل إليه أنه يعرف شيئاً جديداً ، بل يشعر كأنه يجاذب جليسه أطراف حديث فى سمر ، وهو فى أثناء ذلك تارة يناقش ، وتارة يوافق ، وتارة يخالف ، ولكنه على كل حال مستغرق فى الحديث مستمتع به

لا يحاول الدكتور أن يظهر بمظهر المعلم الذى ينقل إلى الناس شيئاً جديداً ، بل يلقى ما يريد قوله فى نغمة هادئة تنسى الانسان أنه يعالج موضوعاً لم يسبق لأحد أن عالجه بمثل استيعابه وطريقته . مع أن الكتاب جديد فى موضوعه ، جديد فى طريقته ، جديد فى لونه

يتكون الكتاب من مقدمة ومن ستة أبواب ، كل منها يعالج ناحية من نواحى الحياة الانجليزية ، فالأول : يتناول الدستور البريطانى ، والثانى : يتناول الرأى العام الانجليزى وتكوينه ، والثالث : المسائل المالية ، والرابع : التعليم فى بريطانيا ، والخامس : نظام القضاء ، والسادس : الأمبراطورية الانجليزية . فأنت ترى من هذا أن الكتاب بحث شامل يكاد لا يفقد فيه القارئ ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية فى بلاد الانجليز . على أننا مع ذلك قد شعرنا بأن مقدار ما يخرج به القارئ من العلم بالحياة العادية فى بلاد الانجليز لا يشفى الغلة ، فان تصوير الكتاب لطبقات الشعب ، ونفسية كل طبقة ، وعلاقة الطبقات بعضها ببعض ، يترك محلاً كبيراً يشبه التشوق إلى المزيد

والكتاب جدير بأن نعقد له غير فصل واحد فى صفحات الأدب والاجتماع . ولكن حسبنا اليوم أن نقول كلمة واحدة عامة عنه ، لنبين معنى واحداً من المعانى التى رأينا فيها مأخذاً على الكتاب ، ولكى نقدره تقديراً مجملاً بغير تفصيل

لعل من أكبر أسباب الزلل فى الحكم على قوم أن يكون الذى يقف نفسه للحكم عليهم متأثراً بميل سابق قبل أن يتصدى للحكم . وقد ظهر ذلك المأخذ واضحاً لنا فى معالجة الدكتور للحكم على طبقات الشعب الأنجليزى وتحديد ماهيتها . فكما أن الحكم قد يكون منتقداً لتحامل صاحبه على من تصدى للحكم عليهم ، كذلك قد يكون منتقداً إذا كان صاحبه مملوء القلب بإجلال من تصدى للحكم عليهم . بل لقد يكون زلل الحكم أعظم وأكثر تضليلاً إذا كان الذى يحكم متأثراً بالميل والمودة . ويكون ذلك الزلل أشد أثراً إذا صحبته تلك النغمة الهادئة التى تلقى فى روع القارئ أن الكاتب غير متحيز فى الحكم . فالحق أن الدكتور معجب بالشعب الانجليزى إعجاباً جعله فى حكمه لا يكاد يرى بعد غاية ذلك الشعب غاية ، ولا دون قصاراه قصارى

فنظام انجلترا فى نظره يحوى فى نواحيه نزعة ديمقراطية جمهورية بارزة متغلغلة فى جميع أسسها ونواحيها ، بل إن المؤلف يقول إنه لا يبالغ إذا قال : « إن هذه النزعة أظهر فى أنظمة الحكم فى بريطانيا منها فى أنظمة الحكم فى فرنسا التى لما أعلنت الجمهورية استبقت لأسباب تاريخية . . . . . جميع أسس

الأنظمة التي خلفها الملوك المستبدون »

ويقول : «ومهما يكن من بلوغ الديمقراطية البريطانية أعلى غاية ممكنة في هذا الزمان فان بريطانيا لا تزال محتفظة بجميع مظاهر الارستقراطية الملكية »

ولن يستطيع أشد الأنجليز تعصباً لقومه ، ولا أعظمهم إكباراً لكبريائه القومية ، أن يقول أكثر من هذا

وهو يقول بعد ذلك في وصف طبقات الشعب مبتدئاً بوصف الأشراف : « فالواقع أن هؤلاء الأشراف في انجلترة مهما سمت مراكزهم وبلغت ثروتهم هم كغيرهم يعملون ويكدون ، لا يأنفون الاشتغال بأي عمل أو مزاولة أية مهنة »

فهو قد نظر إلى تلك الطبقة من خير جهاتها ، وتطلع عليها بعين الرضى والاعجاب ، لا بعين الناقد المتحكم

ويقول في عرض حديثه عن الحمل الثقيل الذي تشكو منه حكومات الانجليز المتعاقبة ، وهو ما تبذله في ميزانيتها للعمال العاطلين : « ولئن كان هذا العبء الناشئ من تنفيذ هذه القوانين الاجتماعية في انجلترة لا يزال ثقيلاً ، إذ يتراوح بين الخمسين والثمانين مليوناً من الجنيهات سنوياً ، فان انجلترة في الوقت نفسه قد اشترت راحتها وطمأنينتها السياسية بهذا المبلغ الذي يتضاءل بجانب النتائج العظيمة التي جنتها من تنفيذ هذه القوانين »

وكأننا به قد تجاهل ما كان لأثر هذه التضحيات المالية العظيمة في فداحة الضرائب ، وإبهاظ كاهل الانتاج ، وعرقلة المصنوعات الانجليزية ، بطريق غير مباشر في ميدان المنافسة التجارية الدولية

وقد يطول بنا القول إذا نحن التمسنا الأمثلة الدالة على هذه النظرة العاطفة في الكتاب حتى لتكاد تجعل القارئ ينسى أنه يقرأ كتاب رجل من أمة أجنبية يصف ما في انجلترة بعين الناقد المستقل

ولئن كانت نظرة العطف هذه قد مالت بالمؤلف النابه إلى هذه الناحية الكريمة من التقدير ، فان نظرة الرجل السياسي الدبلوماسي قد أثرت من جهة أخرى في تقدير المؤلف ، حتى كاد في بعض الأوقات يصل من المقدمات إلى نتائج لا يبررها الاستنتاج . ولا يمكن أن يؤول هذا إلا بمجاملة الرجل الدبلوماسي الذي اعتاد أن يوحي إلى نفسه بما تصوره الظروف السياسية ، فاذا هو ناطق عن هذا الايحاء بغير أن يحس . يريد الرجل الدبلوماسي مثلاً أن يقول أحياناً إن عملاً من الأعمال يؤدي حتماً إلى نشوب حرب بين دولته وبين الدولة التي هو ممثل لدولته فيها ، فاذا به يقول إن ذلك العمل قد لا يكون مما يؤدي إلى زيادة حسن التفاهم بين الدولتين ، وعلى هذا القياس كان الدكتور الكبير يصل من بعض مقدماته إلى بعض نتائجه . ولأضرب لذلك مثلاً من الفصل الأخير الذي عقده على مصير الأمبراطورية الانجليزية ، فانه ابتدأ بحثه بسؤال

ظهر حديثاً قصة

أديب

للدكتور طه حسين

تطلب من

مكتبة النهضة المصرية

شارع المدابغ رقم ١٥ القاهرة

تليفون ٥١٣٩٤

ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ

الكتب النادرة

الكتب النادرة من المطبوعات العربية لا يعرفها إلا غواتها من الأدباء ومنها المطبوع في بولاق وأوربا والاستانة وسائر الأقطار الشرقية ، لهذا اختص صاحب مكتبة العرب الشهيرة بجمع أمثال هذه الكتب من مطبوع ومخطوط حتى أصبحت مكتبة العرب عامرة بأمثال هذه النفائس والتحف بأثمان مرضية ، كما ان مكتبة العرب تشتري الكتب لحسابها لاسيما الكتب الخطية والصاحف الأثرية وتقدرها قدرها .

وجميع المخابرات مع صاحبها الفاضل

الشيخ يوسف البستاني

بشارع الفجالة ٤٧ بمصر تليفون نمرة ٥٦٠٢٥

وللمكتبة قائمة ترسلها مجاناً لكل طالب

فقال : « أهي سائرة نحو التفكك والانحلال أم أنها ستستطيع المحافظة على وحدتها إلى أجل طويل ؟ » ثم ناقش السؤال مناقشة لا يشك القراء منها أنه واصل إلى نتيجة أن تلك الأمبراطورية محتوم عليها أن تنصدع ، أو على الأقل أن ينصدع عنها نصفها عند أول حرب جديدة ، ولكن القارئ يعجب إذا هو بلغ النتيجة فاذا بها : « من كل ما تقدم يمكن القول بأن لا محل للتشاؤم نحو مستقبل الأمبراطورية البريطانية » . ثم استثنى من ذلك ايرلندة وحدها وقال عنها : « إنها سحابة تعكر هذا الجو »

ولاشك فى أن الرجل الدبلوماسى هو المسئول عن مثل تلك المجاملة . لقد يكون من المستحسن أحياناً أن نجامل ، ولكن المؤلف إذا تعرض لكلمة عامة كان واجباً عليه أن يسير مع المنطق ، ومع المنطق وحده ، والكلمة التى يقولها مثل الدكتور الكبير لها من الأهمية والوقع ما لا يكون لرجل دونه فى المكانة أو أقل منه علماً بما يقول

وفى الكتاب فوق كل ذلك نقد ثالث على وجه عام . فاننا إذا قرأنا عن الانجليز لا يمكن أن ننسى أننا نقرأ عن قوم بيننا وبينهم مسألة قومية ، وإذا كان ذلك المعنى فى ذهن القارئ فانه بغير شك يعجب أشد العجب إذا هو قرأ كتاب الدكتور الفاضل . إذ يخيل إليه أنه على خير تقدير إنما يقرأ كتاباً لرجل من بلاد غير مصر عن قوم هو معجب بهم إعجاباً خاصاً

على أن هذا المأخذ الذى أخذناه على نظرة المؤلف لا ينبغى أن يعد مفسداً للكتاب أو منقصاً من قدره نقصاً فادحاً ، فان البحث الذى ساقه المؤلف من دون هذه النظرة العاطفة المجاملة بحث جدير بكل إكبار . ففيه وصف للحياة الدستورية وأساليب الحكم فى بلاد الانجليز قلما يجد قارئ مثله فى كتاب واحد ؛ وفيه باب فى تكوين الرأى العام يمكن أن يعد بحثاً خاصاً لصاحب رأى مجتهد مستقل ؛ وفيه بحث فى المسائل المالية استعرض فيه المؤلف الموقف العملى ، ودس فيه من نظريات المالية والاقتصاد زبداً وافية مع القصد والجمع للأطراف ؛ وكان المؤلف موفقاً كل التوفيق فى بحثه الخاص بالتعليم فى بريطانيا ، فقد وصفه وصفاً دقيقاً يدل على نظره الفاحص وعقله الثاقب . فاذا نحن نقدنا لون التفكير ونغمته ، فلا يسعنا إلا شكر المؤلف الكبير على بحثه فيما دون ذلك ، وعلى هديته من المعلومات الثمينة التى زفها الى قراء العربية

م . ف . ا

تصويب

جاء فى مقال الأستاذ محمد محمود جلال المنشور فى هذا العدد صفحة ٦٥٦ عن رشيد ما نصه : « وهى مركز من مديرية الغربية » والصواب : « ... وهى مركز من مديرية البحيرة »